إسماعيل فهد إسماعيل

الكُرَة والباص

مجموعة قصصية

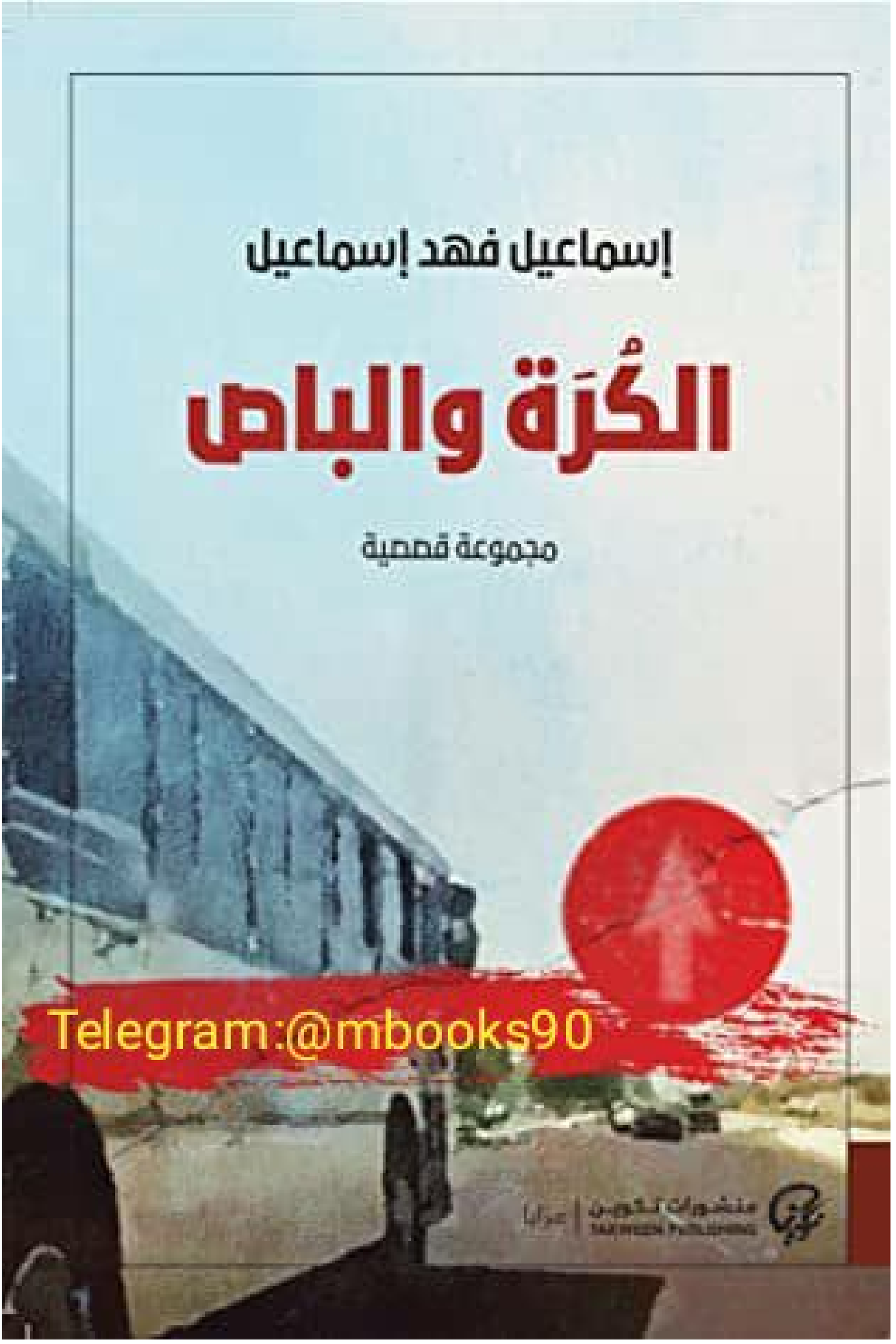

Telegram:@mbooks90

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
عمان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقدمة

الكرة والباص

بدايات المغايرة والتجريب في

أدب إسماعيل فهد إسماعيل

جميل الشبيبي

كتب الروائي إسماعيل فهد إسماعيل معظم قصص مجموعة (الكرة والباص) عام ١٩٦٦، في مدينة البصرة وقبل مغادرته إلى الكويت بفترة قصيرة.

وخلال ذلك كان قد أنجز رواياته الثلاث: «كانت السماء زرقاء»، «الحبل»، «لمستنقعات الضوئية»، كما أن مجموعته الأولى: «البقعة الداكنة» كانت قد صدرت قبل سنة من تاريخ كتابة هذه المجموعة.

تنتمي قصص هذه المجموعة إلى تراث القصة العراقية الستينية التي أعلت نزعة التجريب والمغايرة والقطيعة مع منجز القصة العراقية التي كتبت في الخمسينيات من القرن العشرين: قصص القاص عبد الملك نوري، وفؤاد التكرلي، وغائب طعمة فرمان، ومهدي عيسى الصقر،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وغيرهم من جيل القصة الواقعية، التي انتصرت للشخصيات المُهمَّشة والمُعدَمة من حياة الناس في تلك الفترة.

وعلى الرغم من أن الروائي إسماعيل فهد إسماعيل لم يكن على صلة مباشرة أو غير مباشرة مع كتّاب القصة الستينية العراقية ولم يطّلع على تجارب القصة الستينية التي كتبها عبد الرحمن مجيد الربيعي وسركون بولص، وجليل القيسي ومحمد خضير وأحمد خلف وغيرهم، فإنه كان قريباً من هذه الأجواء بفعل تحسسه الواقع الفاسد في العراق والوطن العربي الذي مهد لهزيمة حزيران عام ١٩٦٧ ونتيجة لاطلاعه على الموجة الوجودية التي بشّرت بها مجلة الآداب البيروتية ودار الآداب التي نشرت ترجمات عديدة لكتب سارتر وألبير كامو وسيمون دي

Telegram:@mbooks90

بوفوار وغيرهم، يضاف إليها الاطلاع على نتاج القصة القصيرة العربية الجديدة وهي تحمل بذرة التجريب والقطيعة مع الأساليب القصصية القديمة تجاه التشظّي وخلخلة زمن السرد، واعتماد ردود الفعل الذاتية عبر ملفوظات تستفيد من تيار الوعي، والدوران في دهاليز الذات لمواجهة تسلط الآخر أو تجنب اقتحام خصوصية عالم الذات، ترسيخاً لمقولة جان بول سارتر: «الجحيم هم الآخرون».

البداية في البصرة

أكد الروائي إسماعيل فهد إسماعيل في أحد لقاءاته المعروفة بلقاء يوم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجمعة، في العام ٢٠٠١ المخصص لأصدقائه ومتذوقي أدبه، أن بداياته كانت في مدينة البصرة، وأنه كتب في البصرة ٢٦ قصة قصيرة خلال العام ٦٦، نشر واحدة منها فقط في مجلة البيان الكويتية، وهي إشارة واضحة إلى مجموعة «الكرة والباص» التي قرأ إحدى قصصها في هذا اللقاء نفسه، تبدأ الأسطر الأولى منها: «خطوط حمراء متوازية»، بإشارة واضحة إلى قصة «الدثار» التي ضمتها المجموعة.

وخلال حديثه عن بداياته يقول: «أما القصص التي كتبت في تلك الحقبة والتي لم تنشر فإنها عديدة يعرفها الكثير من أصدقاء الكاتب». وقد وردت إلى الأديب إسماعيل فهد إسماعيل رسالة من الصليب الأحمر ومن صديقه جميل الشبيبي قبل ثلاث سنوات (الحديث كان عام ٢٠٠١) يذكره بقصة «لكنها الثورة» تلك القصة التي لم تدخل في أي مجموعة، (جميل رأى أن الوقت قد حان لنشر هذه القصة إلى جانب سبعين قصة أخرى لم تنشر حتى اليوم) (1) وحقيقة الأمر أن رسالتي المذكورة قد تناولت تذكير الروائي بمجموعته المتميزة -في ذلك الوقت- «الكرة والباص»، وضرورة نشرها بعد أن أصبح اسمه علمًا من أعلام الرواية العربية، ولم تكن حول قصة محددة كما ذكرت الصحفية فتحية حسين التي نقلت الحوار.

في هذا اللقاء يتحدث الروائي أيضًا عن قصته «الكرة والباص»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي كتبها عام ١٩٦٣ وحذفت الرقابة ٩٠ في المئة منها ويضيف: «بعدها لم أنشر حتى القصص التي كانت تتداول خلال كتابات «كانت السماء زرقاء». لقد شعرت بنفسي شخصيتين إحداهما تكتب لفئة معينة تقتصر على الشباب من رواد مقهى «هاتف» في البصرة وشخصية تكتب لمن هم خارج الجماعة من عامة الناس»(2)، ويبدو أن قصة «الكرة والباص» التي كتبت عام ١٩٦٣، قد تعرضت لتعديلات كثيرة بسبب هذا العداء لها وربما لأسباب أخرى نجهلها، لتظهر بشكلها النهائي، عام ١٩٦٦ ولتصبح عنوانًا للمجموعة.

ومجموعة «الكرة والباص»، تمثل إنجازًا مهمًّا في كتابات الروائي إسماعيل في تلك الفترة بعد روايته «كانت السماء زرقاء»، وقد أشاد الروائي بهذه المجموعة في رسالته الخاصة لي، بتاريخ ١٠/١٠/١٩٦٦ حين تحدث في الرسالة عن طموحه في نشر كتاباته بعد هجرته إلى الكويت، وقال فيها: «البقعة الداكنة أعدت كتابتها، بتعديل قليل على بعض جملها وأضفت لها قصة «إنسانان» التي تحبها أنت، وسأحاول أن أضيف في نهايتها قصة قصيرة أخرى، لأني حاولت أن أحد من المط الموجود في قصصها سابقًا. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ستطبع البقعة الداكنة وتوزع في الكويت فقط، ولم لا... ما دامت الكويت لم تطلع على نسخة منها قبل الآن، علاوة على أني سأحصل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على بعض النقد عن هذا الطريق، وسأقوم بتثبيت بعض أقدامي، أما كتبي الحبيبة فسأطبعها حتمًا وحتمًا في لبنان وإلا فلا... أما أن أطمع بطبعها هنا، أوه، ذلك جنون... كلمة منها... وأنا بره»(3).

والكتب (الحبيبة) التي يقصدها هي رواية «كانت السماء زرقاء» ومجموعته القصصية «الكرة والباص» وكان الروائي قد أشار إليهما في الرسالة نفسها حين كتب «فالكتب التي بقيت على الرف «السماء زرقاء» و«الكرة والباص» هم أطفالي، ولكن الواقع المعطى الجديد يفرض علينا تنازلات من أجل أن نصعد فيه»(4).

لقد تعرضت العديد من كتب الروائي -كما تنبأ فعلًا- إلى الإبعاد والمنع في وطنه الكويت، (كانت السماء زرقاء، المستنقعات الضوئية، الحبل...إلخ) مع أن قيمتها وفضاءها وأحداثها لا تجري في الكويت بل في العراق وفي البصرة تحديدًا، ولو أنه طبع مجموعته هذه لتعرضت للمصير نفسه.

لقد كان الروائي إسماعيل فهد إسماعيل، قامة إبداعية وطاقة تجريبية كبيرة منذ بداياته الأولى، وتكشف قصصه المبكرة هذه، نزعته وميله إلى الجديد والمبتكر الذي تشير إليه هذه المجموعة بشكل جلي، وسوف يجد الناقد والمتلقي الذي يبحث عن القيم الجمالية والشعرية العالية، في الفن القصصي القصير فضاء رحبًا في «الكرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والباص»، التي كتبت في وقت مبكر من زمن السرد العراقي والعربي القصير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صِباها والبرتقال

أدار لسانه في فمه، بعض التبغ دخل فمه عبر عقب السيجارة.

تملكته رغبة في أن يبصق. شدَّ يده على عجلة القيادة، ورغم إحساسه أن مياه المطر تلفه من كل جانب، أنزل زجاج النافذة باليد الأخرى ثم بصق.

ماسحة الزجاج الأمامي لا تكاد تؤدي مهمتها. الظلام حالك، وضوء السيارة تمزِّقه قطرات المطر.

مدَّ يده إلى جيبه، ثم مسح ما علق بزجاج النافذة من بخار بمنديله، «أنفي ينفث البخار، وسيارتي تنفث الدخان، والسماء تنفث أطنان المطر!».

وصمت برهة.

«السيارة تسمم الهواء، والمطر يغرق أرضًا رغم إرادتها!».

دوَّت الريح في أذنية أثناء عصف هواء سيارته الكبيرة بالحواجز الحديدية لسدِّ سامراء، وطرقت أذنه حشرجات رعد بعيد.

«قبل سنوات وسنوات كان قصف الرعد يخيف زوجتي الصغيرة كنت أضمها إلى صدري وعيناي تكادان تعانقان أشجار البرتقال في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المزرعة، عبر النافذة!».

تملكته قشعريرة، وأحس فمه يلوك طعمًا غريبًا.

«لا زالت ذكرى منزلي تحز في نفسي، عاهدت نفسي أن أعيش واقعي كما هو، لكنها...».

تحول الطعم الغريب في فمه إلى مرارة.

«لكنها مزرعتي التي فُرِض عليَّ أن أغادرها، غادرتها كارهًا، وصحبتني زوجتي إلى الأردن».

تناول علبة السجائر من على المقعد، وفجأة أرهف أذنيه. صوت غريب صوت يصدر عن الماكينة.

«اللعينة ما زالت تُصدر احتجاجًا! ماذا تريدين أيضًا؟! هأنا أكرِّس حياتي لكِ بدلًا من أن أكرِّسها لعائلتي».

عاد بعض التبغ يدخل فمه.

«لن أبصقك، ولماذا أفعل؟!».

ثم ازدرده، وبه إحساس غاضب.

«مرة واحدة حاولت قتل أحدهم، ليتني أقع على أحدهم الآن،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذًا...».

ضغط بقدمه، فارتجت السيارة، ودوّى محركها.

«إذًا لاكتسحته وشوّهتُ وجهه النسوي!».

ارتاح للفكرة.

«سأفعل ذلك يومًا، حتمًا».

عاد الصوتَ الغريب إلى الماكينة يطرق أذنِه ثانية.

«إلى الجحيم!».

ولم يرهف أذنيه.

«زوجتي كذلك لم تكف عن البكاء على أرضنا. قلت لها أكثر من مرة: البكاء والصراخ وحدهما لا يعيدان حقًّا مسلوبًا. ومن الغريب أنها لم تكفّ -لحد الآن- عن الصراخ والبكاء!».

صعدت السيارة ربوة صغيرة فخفّت سرعتها قليلًا.

«جميع أراضي هذه المنطقة متموجة، ساعة بارتفاع وأخرى بانخفاض».

انحدرت السيارة بحمولتها، وازداد تساقط المطر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أنا أحمل وقودًا إلى سورية. السيارة سورية، والوقود عراقي، بينما جواز سفري أردني!».

وابتسم. ابتسامته ذكرته بشيء ما.

امتدت يده تتحسس كيسًا ورقيًا إلى جانبه.

«رغم إفلاسي -الذي يكاد يكون تامًّا- اشتريت لها ثوبًا داخليًّا، هي بحاجة له. نهداها ما عادا كما كانا شامخين. أنا لا أعرف مقاس صدرها، لكني اشتريته. بعد ساعات أصل الموصل. وبعد أيام، سأقف بهذه...».

وضغط قدمه انطلقت السيارة مسرعة رغم سياط المطر.

«أمام الحجرة، حجرتنا، المنبّه...».

أنزل يده قليلًا. صوت المنبِّه ملأ أذنيه. وصمت.

«سيأتي بها راكضة إليَّ. سترمقها أعين الجارات بحسد، ذلك ما تحبه، الشيطانة، هم يغبطوننا ولا يدركون بأنني أفهم. مصيبتي أنني أفهم، ستضحك بصمت، وتقف متهدلة الذراعين، هي تستحي. هذه المرة لن أغادر مقعد السيارة. سأفتح لها الباب، ثم أنطلق بها وبالسيارة، كم أود لو أحس بأني أمتلك ما هو لي!».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كاد عقب السيجارة أن يحرق شفتيه، ألقى به خارجًا. في أثناء عمله ذاك تساقطت على يده قطرات المطر.

«مطر على الأسفلت! خسارة!».

ودَّ لو يدخن سيجارة أخرى.

«العمل اللامجدي بحد ذاته خسارة!».

ركز عينيه على الطريق.

«هذا ما قلت له بالضبط، كان فلسطينيًّا كذلك، وكاد يُجَنُّ فرحًا عندما سمع بالمخططات التي وُضِعَت قيد الدرس. فأجابني: هذه المرة تختلف عن سابقاتها. سألته: لماذا؟ فأجاب باستخفاف كما لو أنه ينهي الحديث: لا أدري. ثم أخرج علبة سجائره، السجائر الأجنبية تكلفك غاليًا! فتمتم: لست أدري لِمَ يغرني وجودها حيث حللت، بيد أني سأترك التدخين بعد هذه السَّفرة. هو لم يفعل، زوجتي رجتني تركه. هي لا تعرف...».

أثارت ذكرى زوجته فرحةً صغيرة في داخله.

«لن أتراجع عن فكرتي. سأصعدها إلى جانبي، وانطلق بها وبالسيارة، أود لو أحس بأني أمتلك ما هو لي شرعًا. اللعينة، ستضحك وتضع يدها في صدري بادئ الأمر، لا بد أن تفعل ذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما أضمها إليَّ، ستقول: لم نعُد كما كنا صغارًا...».

دفق إحساس مبهم في صدره.

«كلِمتُها تذكرني بصباها، وبأشجار البرتقال!».

غاضت الابتسامة من فمه، وبلا وعي حانت منه التفاتة نحو الصحراء التي تمتد غربًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدِّثار

ما زلت كما كنت قبل ساعة لا أستطيع رفع عيني عن الخطوط الحمر التي يكاد يضيق بها الدِّثار.

أحدهم ينام في غرفة الضيوف. أخي أنزل له فراشًا، كنت هناك ورأيت دثاري يستقر.

لماذا يجب أن ينام هذا الصديق تحت هذا الدثار؟

تسمَّرت عيناي على الدثار. وجوده يذكرني بوجودي الذي كان. دخلني شيطان. لست أدري علام هَمَسَت نفسي لنفسي:

«هذا الدثار!».

من واجب الضيافة أن أدعه للضيف، لكني نهضت من على الكرسي وكان واطئًا. انحنيت إلى الأرض. تذكرت أن إحدى زجاجات النافذة مكسورة.

التقطت الدثار. الضيف رمقني باستغراب. ابتسمت. وصمت هو. صعدت السلَّم. الظلام يسكن السلم. أبي قال قبل أيام:

- الكهربائي طلب دينارًا!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لذت بالصمت، هو يعلم بأني أمتلك نقودًا.

غريب أمري! لماذا لا أشرب الخمر؟! المجنون بِشُرب الخمر دائمًا بالأمس اقترب مني، قال:

- هذه عشرون فلسًا، خذها.

أخذتها منه، ولم لا أفعل ما دام يعطيني إياها؟!

جلس قبالتي. نظرتُ في وجهه. كان خاليًا من أي تعبير. مرت دقيقة نهض بعدها، ومدَّ لي يده.

لم أبتسم، وأعطيته درهمًا.

هو خرج، وأنا خرجت، هو ذهب، وأنا وقفت، أحدهم التقاني. الأحد قال:

- وبعد؟

لم أبتسم.

- لا شيء.

تمسَّكَ بي.

- تعال نلعب الشطرنج!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هززت رأسي. عيناي علقتا بنافذة عبر الشارع. نورها مضاء «خلفها فتاة».

أنا لا أجزم، ولكن يجب أن تكون فتاة، ولماذا لا ما دمت لا أراها.

صاحبي ظل يتحدث وسرتُ. اجتزت الطريق، وددت لو أقترب من النافذة «أظنها تقرأ!».

ابتعدت.

صوت مراهقة يدغدغ أذنيَّ. هي يهودية.

«لِمَ لمْ تذهب إلى فلسطين؟!».

سمعتها تقول:

- بابا، هو كذب على المجنون، أخذ نقوده وباعه ماءً!

اقتربت.

كنت أشتهي المراهقة. هي تذكِّرني بالربيع، دنوت منها، أخوها يقف قبالتها، وهو يضحك بكل جسده.

المجنون ظهره إلى الحائط، يشرب من فم الزجاجة بتلذذ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هو ماء!

هي قالت.

- لا، لا.

هو قال.

- هل أعدت نقوده؟

قالت اليهودية. تفحصتُ صدرها كان غنيًّا. رغبتُ لو أَمدُّ يدي.

التقت عينانا، ولم تبتسم، لم...

تلك اللعينة لم تبتسم أيضًا.

ابن عمها قال لي شامتًا:

- سمعتُها تحدث أختها. قالت: «هو ما عاد يزورنا!» لعله عرف بأني لست من يوفق لخداعها.

أنا لم أرد خداعها. لم...

أنا خدعت بإنسانيتي.

ثوبها يذكرني بالدثار. دثاري الذي يلفُّني الآن، كانت سمائي نظيفة ودثاري جديدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذاك ما عشته قبل سنوات، وفجأة ادلهمت سمائي. نظرتُ فلم أرها، كدت أفقد دثاري.

ذاك ما عشته قبل أشهر، ثم برزتْ قبل ابن عمها. التقيت بها مرة ومرة. تطلعت إلى السماء...

كانت بذراعين طويلين، هي ضحكت وضحكت، آلت إلا أن ترتدي ثيابًا بأكمام طويلة.

وكان أن...

سمائل القديمة ثارت عليَّ. حاولت أن تسلبني دثاري. لها حق. لها كل الحق. دثاري دثارها.

أعطيتها كل شيء، بما في ذلك إنسانيتي.

لم تبتسم، ذهبتْ بكل شيء.

وأحسست بالدثار لا يكاد يدرأ البرد عني، عانقت الدثار. تلفعتُ به. حجبت السماء عني.

وانتظرت أن يذهب الشتاء!

لماذا يسكر المجنون؟! هو مجنون، إذًا هو مخمور بالفطرة! غريب أمري،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لماذا لا أشرب أنا؟!

المجنون إذا شرب بكى؟!

«وأنا!!».

أحدهم قال عنه ذات مرة.

- كان مجرمًا خطيرًا.

وسألتُ اليهودية مرة:

- لم لْم تذهبوا إلى فلسطين كغيركم؟

عقدتْ حاجبيها، واقتربت بوجهها مني. دفعت بعلبة السجائر إليَّ.

قالت:

- لن أسمح لك بالشراء من حانوتنا ثانية.

أمسكت بالعلبة، وتعمدتُ أن أصدمها في صدرها.

- لن أسمح ليدك أن تصطدم بي ثانية!

تجاهلتُ احتجاجها قلت:

- لِمَ لمْ تذهبوا إلى فلسطين؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زمَّت شفتيها ونفضت رأسها بقوة.

- نحن يهود ولسنا صهاينة!

سرقتُ نظرة إلى صدرها وعدت.

«أنا لم أشجعه عليَّ لكنه هو من بدأ».

ذاك ما تعنيه سماء الأذرع بقولها لأختها. أختها صمتت، وأنا لم أسمع «حسنًا يا سماء الأذرع! أنا لم أقدم. ولكن، ألا يحق لي أن آمل؟! ألا تعلمين بأن ضياع الأمل هو ضياع للإيمان؟!».

قلت لها دون أن أراها:

- دثاري ما عاد يصلح للآخرين.

وقلتُ للدثار يومًا عندما كانت سمائي نظيفة:

- وهل بات صمتي يزعج الآخرين؟!

ضمك الدثار، وأجابني:

- مجنون!

«إن كنت مجنونًا فلم لا أسكر؟!».

الضيف ينام. هو ينام، ولكن صورة الدِثار المصلوب على ذراعي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لن تفارق مخيلته.

- لماذا أخذه؟

هو يتساءل وعيناه إلى السقف. أنا الآن فوق سقفه، إذًا أنا فوق السماء خاصته.

السماء النظيفة التقتني بالأمس في السوق، الزحام على أشدِّه، على ذراعها اليسرى، يستقر جسد ابنتي، أحدهم يهيم حبًّا بابنتي، هو قال ذات ليلة:

- أنا أغفر لك كل شيء إلَّا أن تحرمني ابنتك!

قلت لها. للسماء النظيفة:

- أنت حبلى بالمطر كما يدَّعون!

لم تبتسم، وأجابت بحزن ذكرني بما قبل سنوات:

- كيف لي بالغيم ولم يمسسني بشر!

أسِفتُ على قولي. خفضتُ عينيَّ. سيقان ناعمة تعبر الطريق.

وعدت أقول:

- الأحرى بكِ أن تحبلي، أنا أريد ابنتي. هو يهيم بها!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابنتي تطلعتْ في عيني. أدركتُ ذلك من خلال السيقان الناعمة. رفعتُ عينيَّ إلى وجهها. رأيته في عينيها.

«هو يهيم بها، وهي لا تعرف ذلك!».

رفعتْ كفها، وأشارت أن أبتعد. قلت لها:

- سأستردك يومًا، لا بد أن تحبل السماء.

مدَّتْ ذراعها نحوي. يدها نديَّة. أمسكت بإصبع وقبلته.

«هو يهيم بها، عليه اللعنة!».

ودمعت عيناه.

- انظر إليَّ، لا زلت نظيفة، تركت لك الدثار لتعود في آخر النهار

فأجبتها دون أن أنظر إلى ابنتي:

- لكن النهار لم يطلع بعد!

لم تبتسم.

- يمكنك أن تطلع بنهار جديد!

- حقًّا!

حقًّا يمكنني، كما يمكن للمجنون ألَّا يشرب ليسكر. ولماذا يعفُّ ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دام مجنونًا، فطرة؟

تحركت لأنصرف. ابنتي مدت يدها في جيبي، أخذت مئة فلس.

السماء النظيفة أمطرت بلا غيم. عليَّ أن أحتمي بدثاري.

أبي قال:

- دعكَ من هذا الجنون، سيبقى السلّم مظلمًا ما دامت النقود في جيبك! صمتُّ.

- هم يريدون شيئًا ما منك!

أختي قالت. صمتُّ.

- ابدأ ثانية!

أخي قال. هرعت إلى الدثار. كان بخطوط متوازية لا يحدها النظر.

غريب! كيف لا ترتسم نقطة التلاشي على الدِثار؟ وكيف يعشق المجنون شرب الخمر؟!

منذ ساعة، وبينما أنا في طريق عودتي من المقهى أبصرت باليهودية. كانت تسير بمحاذاة جدار قديم.

اقتربت منها. رمتني بنظرة خائفة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ابتعد، ألا تراني وحيدة!

وقفتُ أمامها. ضيَّقت عليها الطريق.

- عليك اللعنة، ابتعد!

مدَّت يدها تعدِّل من وضع ثوبها.

كدت أغمض عيني، ومددت يدي.

- ابتعد ألا تراني مراهقة!

- ...

- لا تمد يدك، سوف أستسلم بسرعة!

لم أضمك.

- أنتِ نظيفة الآن.

- أنا خائفة!

- الأحرى بك أن تحبلي.

مدت يدها لتدفع يدي.

- أنا يهودية!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمسكت بلحم طري، وتململ برعم تحت أصابعي.

- ماذا!

لم أخرج.

- أنت صهيونية!

انكمش اللحم الطري، وأمطرت السماء من دون غيم.

- والله أنا يهودية! أنا يهودية، هم صهاينة!

كانت السماء النظيفة تمطر.

ابتعدتُ بيدي، عليَّ أن أحتمي بدثاري، الخطوط المتوازية لا تلتقي مهما امتدت.

«ولكن نقطة التلاشي يجب أن تنظر لعينيَّ. لماذا لا تتجسم في هذا الدثار. أنظر إليه، الخطوط الحمر، تخترق الجدار إلى الشارع. عبر كل شيء. رفعت عيني إلى السماء. نجومها حمراء». كيف لا يراها الآخرون كما أراها أنا؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عَطاء

«نفضت من الفرح يدي، وبعتُ نفسي للضجر».

«ما بعت، الضجر هو الذي اشتراني».

أضع معجون الأسنان على الفرشاة، الساعة العاشرة، هي عادتي. أصحو متأخرًا. عملي يسمح بذلك، يكفي أن أحشر أنفي في العمل ساعة واحدة متى شئت.

أنظر إلى المرآة، أسناني صفراء رغم كل شيء، لماذا أنظفها؟

أحشر الفرشاة في فمي بقوة، وأبدأ عملية تنظيف سريعة، أحس باللثة تتمزق، بعض الدم يتجمع في فمي.

أبصقُ، اللون الوردي يصبغ بياض المغسلة، أنظر إلى المرآة. أسناني لا زالت صفراء رغم...

- اللعنة على السجاير!

يتملكني ضجر:

- هي لم تأتِ أمس!

ألقى بالفرشاة. من هي؟ علام تأتي؟ من أنا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وينتابني غثيان حاد.

قبل أن أبيع إنسانيتي منذ شهرين قررت أن أقطع صلتي العاطفية بأي إنسان. ارتحتُ لقراري.

قتلتُ وقتي بقراءة الكتب، فضعت فيها.

ما عدت أؤمن بهدفٍ معين، لكن هذه الكتب اللعينة تترك آثارها السيئة في نفسي.

أعود للنظر في المرآة، وجهي هو هو، لكن نفسي تغلفها عتمة غريبة. لا بأس ستستقر سفينتي يومًا ما.

أرقى السلم إلى غرفتي، وألقي نظرة عليها، المنضدة خالية إلَّا من مجلة معينة، أقيءُ ضجرًا.

- هذه المجلة كانت قد استقرَّت على هذه المنضدة منذ عشرة أيام، أنا لم أقرأها لحد الآن.

أفتح الدُرج. القنينة الصغيرة لا زالت ممتلئة، أنا لم أضع الدواء في عيني منذ أسبوع.

ألوك شيئًا في فمي.

الأوحال تملأ شوارع البصرة!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المطر كان شديدًا ليلة البارحة.

لا بد أن الأكواخ تنزُّ رطوبة!

أسمع أمي تقول:

- بالأمس جاءت (س) سألت عنك.

- ماذا أرادت؟

فتجيب أمي:

- لا أدري، قالت: لديَّ مفاجأة له. ستجيء عصر اليوم، الساعة الرابعة.

فرحة صغيرة، صغيرة جدًّا تنبعث في داخلي.

«مفاجأة».

لكن الفرحة سرعان ما تذوي ليحل محلها إحساس بالمرارة واليأس.

وأتمتم بصمت:

- أظنها اكتشفت شيئًا، جملة ما تثير الضحك، كما هي عادتها، تظنني أعيش لأضحك. أنا أُضحِكها لأن ذلك يسعدها. هي لم تفهمني، كم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أود لو أمسِك بكتفيها، وأهزها بقوة:

«أنا أحبك».

بيد أنها صغيرة لا تفهم!

ويحتضنني وحْلُ الطريق.

عيون الرجال تتابع امرأة ريفية جميلة، رفعت ثوبها قليلًا اتقاءَ الوحل.

الرياح الشمالية تعصف بقوة. ضرب الريح يبعث في الأجساد الشابة إحساسًا بالتحدي.

سيارة الباص الحمراء واقفة.

- لن أركبها!

لا بد أن مسًّا من الجنون يصيبني، لكني لن أركبها، وأتابع طريقي. الأوحال كثيرة، رغم هذا سأتابع طريقي مشيًا.

خيال فتاة أعرفها يبدو من طرف الشارع، هي تبيع الكتب في «سوق الجمعة».

لا بد أن كوخهم ينزُّ رطوبة!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هي تبتسم للرياح.

ستحيينني حتمًا! لست أدري ما الذي يدفعها إلى هذا العمل، هي صغيرة وأنا كبير!

قبل أيام عبرتْ الشارع وحيَّتني. وددتُ لو لم تفعل، الصديق الذي كان إلى جانبي نظر إليَّ بطرف عينه وغمز.

ابتسامتها تزداد اتساعًا.

هي صغيرة!

وتنبعث في عينيها فرحة كبيرة.

«أظنها مجنونة!».

وأبتسم رغمًا عني، صوتها يصلني:

- صباح الخير.

الأوحال تغطي كل شيء، وتجعله لزجًا، أقف. فكرة شيطانية تملكني وتنطق الكلمات من فمي:

- لماذا تفعلين ذلك؟

تتوقف الفتاة، ترتسم دهشةعلى وجهها:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يضيع السؤال في فمي. لكن روح التحدي لا زالت تشدني، وأقتنص كلمات متنافرة:

لماذا، صباح الخير؟

ترفع حاجبيها:

- ماذا!

تنتابني حيرة، وأعود أقتنص كلمات متنافرة:

- أنت لا تعرفينني!

- أنا أعرفك، أنت اشتريت مني كتبًا.

- الآخرون يفعلون أيضًا!

تبتسم بدهشة وتجيب:

- لكنكَ لستَ مثلهم!

«حقًّا!».

- لماذا؟

فتضطرب شفتاها:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنا آسفة!

وتسير. الطريق طويلة، صوتها ينفذ إلى أذني ثانية، هي لم تتكلم لكن سؤالًا ما...

- ما به؟!

أحسه وقد احتبس في داخلها. وأعود أدراجي، الوحل يغطي كل شيء، وأسرع في سيري، هأنا أصلها، فمي يطلق:

- صباح الخير!

فرحة دهشة، تبدو بوضوح على وجهها:

- صباح الخير!

تنتابني حيرة، وأصطاد كلمات متنافرة:

- ستحييني ثانية، أليس كذلك؟

تضحك:

- ما بك؟!

- أنا آسف!

تضحك بسعادة، وتتابع سيرها، أسمعها تقول:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إن لم يضايقك ذلك!

...

«حذائي نظيف رغم الأوحال!».

أرفع عينيَّ عنه.

«مجانين نحن، عطاء صغير يشعرنا بوجودنا!».

متسوِّل عجوز يلتقيني:

- من مال الله!

لا أعطيه نقودًا. أبتسم وأقول له:

- صباح الخير.

تضطرب شفتا المتسول، وترتسم في عينيه فرحة.

«لن أفكر بأسناني، لتكن صفراء، ستسعدني مفاجأة، س...».

ألقي نظرة على ساعتي.

«متى تأتي الرابعة!».

أحس بالدماء حارة في جسدي وأفرح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنا الآخرون

أتكلم ثم نتطوع أمي لترديد ما تفوهت به.

سطحُ بيتنا عالٍ فوق كل الأسطح، ولا ينقصه سوى شيء واحد، مرافق صحية على السطح.

أنا أتفوه تفاهات، ومن الغريب أني أرتاح إذ أفعل.

الفكرة، ثم الرغبة.

بي رغبة لأن أتحدث. فكرة راودتني، ضوء خافت تعقبه رجفة فرح، يعقبها شوق لأن أفعل، وهأنا...

خيوط واهية تنبعث من الأبعد تمتد من أركان كياني وتنجذب نحو بعضها لتتحد، خالقة لي واقعًا أوده.

الزمن هو البعد الرابع، اللحظة تركم اللحظة، اللحظات تتكوم، ضيفتنا...

«كيس النخالة الأم» تنام.

- ابنهم فيلسوف!

تهمس لنفسها، وهي تسترجع كلمات معينة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضيفتنا الأخرى. «كيس النخالة الابن» تنام:

- ترى هل يحبني؟

إيه، يا أنتِ يا نخالة الابن! هلَّا كففتِ عن أن تنظري إليَّ كرجل يصلح لأن يكون زوجًا؟!

أنا رجل، لا بأس، ولكن أي رجل؟!

رجل لا ينظر إليكِ كأنثى تصلح لأن تكون زوجة بجسدِ فوَّار بالرغبة. خالٍ من أية فكرة، تخفيه ثياب وردية.

- مثقف!

وتغمضين جفنيك الكحيلين.

- أبوه لمَّح لي عن ميله إليَّ!

وتبتسمين.

- أمه تحبني!

وترضين، ثم تنامين وتحلمين.

يا كيس النخالة، هل تفهمين؟!

بأن الأحلام ما عادت ضمن قاموسي؟ وبأنني أنام من أجل أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أفكر، وأفكر كي أنام.

البعد الرابع للجسم هو ما أحاول الإمساك به، أحقق وجوده بالنسبة للآخرين.

والحالة الرابعة للمادة هي ما أحاول أن أكونه كي أتحد بهم، وإلى الجحيم بالنخالات!

الألوان الوردية تفجر رغبة مجنونة في داخلي، الساق الممتلئة تباعد ما بين جزيئات أفكاري، وتنطرح بتكاسل هناك، لتولد إحساسًا إنسانيًّا يحقق تمزقًا يضعني وجهًا لوجه أمام تحدٍّ يهز كياني ويُشعرني بأنني إنسان ورجل.

لكني أكره الفخذ التي سيمتلئ فمي تخمة منها.

- سأصطاده هذا الشيطان الذي لا يكاد يستقر!

ذاك ما قالته لي عيناك في لقائنا الثالث.

- جميلة، ممتلئة، غنيّة.

ذاك ما قالته لي عينا أمي في لقائك الثاني بي.

- غنية، غنية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غنية هي عين أبي منذ لقائك الأول.

ألا تعلمون بأن تدابيركم المحكمة وُجِدت بعد وجود الرغبة مباشرة؟! أنا أرثي لشبابكم وأفكر مع نفسي.

كيف أقنع نفسي بالتزام كيسٍ يضع نفسه ساعة أمام المرآة؟

يلتهم الطعام لساعة أخرى. يسمن، ويسمن، تنتفخ بطنه، الشهر الأول...

- لا تدعوها تتحرك! الشهر الخامس، السادس، البطن تكبر وتكبر، الشهر التاسع، آلام المخاض، يا إلهى، يا أمي، يا...

- مبارك المولود...

يقول الطبيب، ويتفرغ كيس لخلق كيس نخالة جديد.

لا يا هذا سطح بيتنا عالٍ فوق كل السطوح، لكنه خالٍ من المرافق الصحية، ويسقط ثوبك كاشفًا عن فخذ وردية مكتنزة.

Telegram: @mbooks90

حدث ذلك -بصورة لا واعية- يومًا ما.

- آسفة!

وتسارعين لسترها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفخذ تعيش برأسي، سنتزوج، أعضُّ الفخذ، فتزداد سمنة، سنستيقظ في الصباح. الأصباغ تسيح على الوجه الغبي، هي تثير غثيان تخمتي، وأقبع في صمت مستفز.

بعد ذلك أنزل إلى السوق. تخمتي تصطاد بعض الوجوه التي لا تخلو من أصباغ.

أصباغ الآخرين ليست ذات عطور، هي فقر الدم. فألعن نفسي وألعنكِ.

- عيناك متعبتان، أترك القراءة!

قلت قبل ساعة، وغدًا ستقولين وفمك يطلق تثاؤبًا:

سأكرهك إن لم تكف عن القراءة.

تغلقين فمك على احتجاج يجردني إعاشة حريتي.

لا يا وجبة شتائية دسمة!

الأرض ستظل تدور بي، لكن ذلك لا يحدث إلَّا من خلال انتمائي للآخرين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النَّعل الكبيرة

رفع قدمه عن الأرض قليلًا ثم ضرب بها أسفلت الشارع بقوة، فتطايرت ذرات التراب العالقة بالنعل مكونة سحابة صغيرة متكاثفة.

فعاد وضرب قدمه الأخرى، لكن السحابة الثانية كانت أصغر من سابقتها فداخله إحساس صغير بالضيق.

«هذه النعل!».

قالها لنفسه بغضب، وكأنه يهمُّ بالاستطراد في السباب، ثم أطلق من صدره زفرة.

هبَّت رياح خريفية باردة، فاجتاحت جسده قشعريرة برد، وحاد عن منتصف الطريق.

بعد دقائق وصل جسرًا يعترض التفاف الطريق، اقترب من الحاجز الأسمنتي، ومدَّ يده يتحسسه، فسرت البرودة إلى جسده، لم يرفع يده واتجه ببصره ناحية الماء، شافعًا عمله بانحناءة حيث أدرك بالغريزة دفء الماء. دفقَ في صدره حنين غامض إلى الماء، واجتاحته رغبة صبيانية في أن ينفذ ما خطر بباله.

قام بالتفاف حول الحاجز، وكانت أنوار الفجر تصبغ الأفق بلون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فضي ثم بدأ يتحسس طريقًا لبلوغ الماء.

«ستغضب زوجتي لو علمت بعبثي الصبياني هذا».

وخيِّل إليه أن الظلام يجثم هناك في قعر النهر.

«أغسلُ وجهي على الأقل».

وأرهف أذنيه علَّ ضفدعًا تنقُّ.

استوى واقفًا عند الحاجز الأسمنتي.

«طفلة تظن العمل متوفرًا حيثما ذهبت!».

وخطا إلى الأمام خطوات بدأت رتيبة، أخذت تتلاحق سرعتها شيئًا فشيئًا.

«آخر عمل ألتحق به طلب إليَّ صاحبه ألَّا أعود في اليوم التالي. أنا أعرف السبب...».

وخفض عينيه.

«وهذه النعل!».

وانطلقت من فمه همهمة سباب.

طفق يسير سيرًا حثيثًا وعيناه لا تفارقان أديم الشارع دون أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يركزهما على نقاط معينة.

مع الثبات اللاإرادي لعينيه تحوَّلت الأرض بين قدميه إلى خطوط تنساب بسرعة من خلفه إلى ما وراءه، فملأه إحساس حلو بسعادة لم يعهدها من قبل، ثم عاد إليه كامل وعيه عندما وجد نفسه يقف مصلوبًا دون تفكير سابق أمام تلال كبيرة من الطابوق والجبس.

«لا فائدة من تفتيشي عن عمل آخر».

اقتعِد تلًّا صغيرًا من الرمل.

«أم م م...».

وابتسم عندما احتضن الرمل الرطب عجيزته.

«سأفرش أرض كوخنا بالرمل، لو فعلت هذا لوفرت...».

قطع تسلسل أفكاره، واتسعت ابتسامته حينما عانق الرمل جسده:

«سأفرشه!».

- السلام عليكم.

أزعجه صوت متطفل، فرفع رأسه:

- وعليكم...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجاب بهمهمة ضجرة، وتذكر شيئًا غاب عنه، فداخله خجل.

«لا بد أن الرجل شاهد ساقيَّ وأنا... لعله شاهد أكثر!».

ومدَّ يده حاصرًا ثوبه ما بين ركبتيه بادئ الأمر ريثما رفع إحدى ساقيه واضعًا إياها على الأخرى، فأحس راحة صغيرة، لكن انزلاق نعله إلى رؤوس أصابعه أغضبه.

«حقيرة!».

ومدَّ يده يلتقط النعل التي سقطت إلى جانبه:

«شيطانة!».

وقرَّبَ النعل من وجهه:

«لولاك لما طُرِدت من العمل هنا قبل أسبوع، ولكن لك الحق، أنت مُجبرة على إطاعة الأمر».

حرك قدمه على الرمل ضاغطًا إياها بقوة، علَّ بعض الألم يصدر عن جرح في راحتها.

«كنت العامل الوحيد الذي استلم نقودًا. لم أفرح بها، فاستلامي لها قبل الخميس معناه: لا تأتِ غدًا. وددت لو أغتنم الفرصة، وأطلعه على ما يدفعني للتمسك بالنعل التي أثارت غضبه، وددتُ لو أستطيع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رفع قدمي فأريه الجرح، لكن النعل أَبَت مفارقة قدمي، وعندما تلقفني الطريق عرفت أني لا أستطيع الاستغناء عن واحد من اثنين، نعلي أو كرامتي».

- السلام عليكم.

فاجأه الصوت، فانتفض جالسًا.

- أهلًا..

جلس العامل الذي زامله لمدة يوم قبل أسبوع.

- ألم تجد عملًا آخر؟

انتقلت عينا الأول إلى نعله:

«لو كانت أصغر قليلًا!».

- لا.

فقال الوافد:

- أظنهم بحاجة لعامل إضافي هذا اليوم!

«صحيح!».

وداخله أمل صغير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«قد يظنها البعض جبنًا، سأخلعها ما دمنا في بداية العمل، والجرح الذي في راحة قدمي لا يؤلمني».

أفلت نعله، بدأ بالقدم المصابة.

«أو!».

وأحس بالألم يخزه في جميع أجزاء جسده. كل ذلك نتج عن حصاة صغيرة كان موقعها تحت الجرح.

«خدعني الرمل! ظننتها شُفِيَت. لو أن أرضهم مفروشة رملًا، لأرضيتهم!».

أعاد قدمه إلى النعل.

«حتى استعمال الخرق لم يجدِ!».

وبدأ ينضد الطابوق على بعضه.

«لو أن أحدهم سألني عن سبب تمسكي بالنعل، لن أقف أمامهم وأريهم الجرح».

انتبه إلى أنه نضد ضعف الكمية المقررة، فراودته فكرة:

«هي تضايقني الآن، بيد أنى سأعمل عمل رجلين، ونرى!».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دخل البيت -حيث يقوم العمل- فأصيب بخيبة أمل كبيرة، عندما طالعته عيون العمال محملة بالسخرية.

أحس حاجة ماسة لأن يزدرد لعابه، وانجذّ في صورة ضيق مفاجئ. بجهد أوصل حمله، وعاد منكس الرأس.

«علام أكون مدعاة تسلية؟!».

واضطربت حركة يده.

«هذه هي الكمية المألوفة، لو حملتها الآن ودخلت لزادت سخريتهم، لكني سأدفع صاحب العمل لتشغيلي غدًا!».

ما كان يتوقع أن تخذله نعله بمثل هذه السرعة. وانطلق ضحك العمال يصم أذنيه عندما عثر وسقط بحمله.

Telegram:@mbooks90

عدا صاحب العمل، فقد نظر إليه كأنه يرثى له:

- أنت مخلص... لولا النعل.

اجتاحته فرحة:

«سأُريه الجرح!».

وعاد صاحب العمل يسأله:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لم لا تخلعها؟!

بادر لخلع نعله، شافعًا كلامه بالدليل، غير أن أحد العمال صاح به:

- طابوق!

نظر إلى رب العمل مستعطفًا.

- طابوق!

تجاهل الصوت ورفع قدمه.

- اذهب إليه بالطابوق!

أبعد عينيه عن عيني صاحب العمل الغاضبتين، وعادت قدمه تتحسس نعلها الكبيرة.

انفضَّ جمع العمال، وذهب كلٌّ إلى بيته لتناول طعام الغداء، ودَّ لو أعطوه درهمًا من أجرة عمله الصباحي لكيلا يعود إلى البيت خالي اليدين.

تذكَّر النعل عندما وصل الطريق العامة، نظر إليها، كانت بلون الأرض، رفع قدمه قليلًا وضرب بها أسفلت الشارع، فتطايرت ذرات التراب العالقة بالنعل مكونة سحابة صغيرة متكاثفة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«هذه النعل!».

عَلَت وجهه ابتسامة باهتة واستطرد: «أدت واجبها، ما فيه الكفاية، منذ سنوات وهي تصحبني في ذهابي وإيابي».

رفع عينية عنها.

«الأحرى بي أن أتلافى تلفها وأسارع...».

تدحرجت أمامه حصاة صغيرة.

«لأوفِّر لنا الطعام أولًا!».

وتراءى له وجه زوجته فغمره حنين إلى الطعام وإليها.

كانت الدقائق العشر الأخيرة من عمل ما بعد الظهر أحرج وقت مرَّ به.

«إما العمل غدًا، وإما...».

في تلك الفترة القصيرة تجسَّمت له جريمة النعل، وأحس بكراهية شديدة لها.

فكر بخلعها، ثم عدل.

«ليكن ما يكون!».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخيرًا اقترب من صاحب العمل الذي أشار إليه.

«استلامي النقود معناه: لا عمل في الغد!».

خطا إلى الأمام.

«حتى لو استلمت النقود، فسنتعشى عشاءً دسمًا».

التقطت أذناه رنين الأقراص المعدنية في اليد الناعمة، ورغم الشجاعة التي زوَّد نفسه بها ملأه شعور بأنه مظلوم، وتسارع وجيب قلبه.

- نعم؟

قال بيأس منتظرًا مصيرًا أدركه. لكن الصمت الدال على التفكير - من أجل اتخاذ قرار عاجل- لدى رب العمل جعله ينتظر الرد بخوف أكبر.

- لا شيء، انصرف.

«لا!».

تمتم غير مصدق، ثم تنفس الصعداء.

لم يضرب أديم الشارع كما سبق وفعل، كان كل همه أن يصل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكوخ ويزُّف البشرى لزوجته.

وفجأة حاذته دراجة هوائية يمتطيها أحد أبناء رب العمل وتوقفت عنده.

التصقت نعلاه بالأسفلت، وصُلِبت عيناه على الوجه الصغير.

- ماذا تريد؟

جُوبه بالصمت، بيد أن يدًا صغيرة مدت أمامه. خفض هذا عينيه فانتفض جسده بحركة مستفزة.

أحس بالغصة في فمه، وسقطت دمعة صغيرة على خده، لم يكلف نفسه عناء مسحها.

«إذن فقد قررت أخيرًا... حسنًا فعل، سنتناول طعامًا دسمًا هذا المساء، أما الغد...».

وقطع عليه الصغير أفكاره.

- خذ نقودك.

ولأجل أن يواري انفعاله، تناولها، وطفق يعدها، فوجدها سبعة بدلًا من ستة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تملكه إحساس من نوع غريب، استُفِزَّت الرجولة في شخصه.

«يقصد استرضائي بدرهمِه السابع!».

دفع بالدرهم إلى راكب الدراجة.

- أرجعه لأبيك.

- أبي قال: أنت تستحق أكثر.

لم يعر كلام الصغير اهتمامًا، وبادر لإسقاط القطعة المعدنية من يده.

قبل اختفاء رنينها تراجع خطوة إلى الوراء.

«أخيرًا...».

ثم انحنى يحمل النعل التي كان قد خلَّص قدمه منها. انحنى الطفل والدهشة تأخذ بحاجبيه.

- أبي قال: قل له تعالَ غدًا!

لم يصدق أذنيه.

- هو قال: أنت تستحق الدرهم السابق!

وبحركة سريعة اختطف الدرهم قبل أن تناله يد الطفل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعدما انصرف الصغير أحس هذا بالنعل دخيلًا على يديه.

«أخيرًا...».

لم يفكر بارتدائه ثانية. ضمه إليه بحنان، وانطلقت من أنفه زفرة أراحت صدره التعِب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نِفاقُ الآخرين

عبْرَ الشارع، وعلى بعد عشرة أمتار، يطالعني وجه النافذة بلونها الأخضر.

- أتريد شايًا؟

فالتفتُّ إلى النادل. ابتسامته تسعدني. منذ أشهر وأنا أرتاد هذا الركن من المقهى، معاملته هي هي...

أما هي، وهي...

وتنطلق عيناي بمحاولة يائسة لتتغلغلا وراء زجاج النافذة.

هم أقربائي، وهم برجوازيون. في الماضي تساءلت:

«علامَ لم أولد من أبٍ غني؟!».

ثم يطالعني وجه أبي باستسلامه وقدريته، فأغضب، وأحقد.

كنت صغيرًا، وكنت أُعنى بزيارة أقربائي هؤلاء بين حين وحين، ثلاجتهم الكبيرة تسعدني بما فيها من معلبات.

ربة البيت...

- خالتي: أمي تسلم عليكم!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أهلًا، كيف حالها؟

وتنصرف قبل سماع إجابتي، تبهرني الألوان النظيفة للأثاث والجدران، خادمهم يدس شيئًا ما في يدي.

فمي يفرح، لم أكن أرفض، هي ليست خالتي بالضبط، قريبة لأمي، لكنها تحبني. الخادم يرمقني -بعد دقائق- بنظرة شزراء.

«ما به؟! أنا لا أكرهه»!؟

لخالتي -ذلك الحين- طفلتان. كنت أحبهما، ولا زلت.

- هذا هو الشاي.

أمد يدي إلى الملعقة. النادل لا يبتسم.

«لا بد أن شيئًا ما يشغله!».

أذني لا تضيق برنين الملعقة، عيناهما لا تضيقان بي، إلَّا عادة واحدة عودت نفسي على احتمالها.

«تلك هي طبيعتها».

كانتا تحدثانني بتكلف. ألقى الملعقة بقوة. فتسقط من على الإناء إلى الأرض.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أنا أحبهما بتكلفهما!».

وقبل أشهر استأجرت بيتًا قريبًا من...

وأنظر إلى النافذة، فأحس حقدًا ينبع من نفسي وعليها.

«ما كنت حقيرًا!».

وأزدرد الشاي الحار، بعد استئجاري للمنزل الجديد قررت أن أزورهم.

منذ سنوات لم أزرهم. مُذ كنت طالبًا في الإعدادية انتقلت بي الظروف إلى بغداد، تركتهما مراهقتين صغيرتين.

عدَّلت من وضع هندامي، كان ذلك قبل اعتيادي الجلوس في هذه المقهى، ضغطت جرس بوابتهم دون تردد... يُفتح الباب. الخادم يتفحصني باحترام، تلجُ قدمي الباب.

- أهلًا، أهلًا.

ويعود صوت خالتي المشوب بود عميق لأول مرة:

- نحن نعتب عليكم، منذ أيام وأنتم جيراننا، لماذا لم تشرفنا العائلة بالزيارة؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تملكني الدهشة: «لهجتهما مغايرة لما كانت عليه! ما السبب؟!».

وأدخل. فتاتان مكتملتا النضج تفيضان أنوثة تتلقفان يدي بحرارة.

«ماذا حدث؟! ليست طبيعتهما!».

الأنوثة تقودني حيث غرفة الضيوف. خالتي تقترب. بيدها وليس بيد الخادم، تمد لي شيئًا مما يُقدم للضيوف.

الأخت الصغرى تتفحص هندامي بنظرة مكابرة. أنظر إلى ثيابي.

«الخياط أجاد الخياطة».

افتقدت لهجة الفتاتين المتكلفة. أذناي تسمعان همسًا، كبراهم تقول للصغرى:

- هو مدرس الآن.

تنكشف لي الحقيقة، غيمة معتمة تتجمع في داخلي.

«كنت حقيرًا...!».

عيناي تضيقان بالمكان.

«كانوا يتصدقون عليَّ ببرود، والآن يعاملونني كنِّدٍ!».

قدماي تتململان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- قبل قليل جئت!

فأجيب خالتي المندهشة.

- آسف أظنني أثقلت عليكم في الماضي.

أضع إناء الشاي الفارغ، يقترب النادل وينحني ليأخذه.

- أريد شايًا آخر.

يبتسم النادل بود صادق، أحس بنفسي أحبه، وبمحبتي له تسعده.

«هو يعاملني كإنسان دون أن يعرف ما... ومن أنا».

لِمَ أذهب لزيارتهم، ليتهم ظلوا كما كانوا، كنت مخدوعًا، وتريحني طبيعتهم».

- هذا هو الشاي.

يضع النادل ما بيده وينصرف دون أن يبتسم.

«أظن أن شيئًا ما يشغله!».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرجل ذو الرأسين

- سأظلُّ ملتزمًا بشعره، ولن أحيد عن نظم الشعر الشعبي.

ثم يلتفت إلى رفيقتي مستطردًا:

- لنودعه الآن، أنت لم تعرِّفه عليَّ، رغم أن جميع نُدل الحانات قد فعلوا!

أبتسم أنا، ويبتسم رفيقي. أشد على أيديهما، وتحضنهما السيارة.

«كل ليلة، كل يوم، الفراغ!».

عيناي تغادران الشرفة الخضراء، إلى حيث السماء.

بالأمس كانت تقف. زهرة صغيرة في الشرفة الخضراء، الليل في منتصفه ورياح نيسان توشوش الطرقات والظلام والكلاب الضالة.

نظرتُ إليها.

«حلوة!».

أنا في الطريق، وهي في برجها، كدت أبصر أشياء كثيرة، أشياء تقيم جسدي ولا تقعده، بيد أن الحياء -الذي أمقته- أقعدني، وانتقلت بعيني إلى وجهها، خيِّل إليَّ أنها تنظر إليَّ، وتمنيتُ لو أنها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابتسمت.

خفضت عينيَّ، ولم أطلق زفرة، أرغب لو أعض أصابعي.

قدماي تنشدان إلى حيث مستنقع صغير.

«مطعم الجابي».

أقرأ اللافتة بصوت مسموع، حتى متى تُغسل أرض المطعم ليلًا، وتُنقع الطريق نهارًا؟! عجلات السيارات تستحم بمياه المستنقع، الطفل ومياهه لا. ولن تنضب.

«ماذا لو أنها رفعت ثوب نومها عن ركبتيها قليلًا ثم غسلت قدميها الواحدة بالأخرى في المستنقع!!».

أرهف السمع. قدمي تصافح الأرض بقوة مخمور. وتنطلق في رأسي نغمة شعرية:

كضجيج أقدام الجنود العائدين من القتال

قدمي تضجُّ على الطريق

وجه إنسان مشرد تنفجر تقاطيعه في داخلي، وتكبر، تكبر لتتحول إلى لعنة بحجم حاجتي لامرأة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا أمسك أنفاسي، يتملكني سعال، ينتفض جسدي. وأبصق بصقة قلوية، دبقة، ضخمة، بضخامة رأس الكلب الذي كان بوليسيًّا. أرهب السمع لعلي...

الحارس الليلي يخفيه الظلام.

بسلاحه المصدوء يصطاد الهواء، والسلاحف.

يداه ضخمتان، معروقتان، تنزان صدأً وحديدًا، هما تتلمسان أقفال الحوانيت في كل ليلة، وفي مثل هذا الوقت يمسك بالقفل تلو القفل.

يداه بلا مفاتيح، ودربه بلا مصابيح، لا تسابيح.

مطعم الجابي لامع الأضواء في النهار فقط، والجباة يتقاطرون حوله، وجوههم مؤطرة بابتسامات كانوا قد اشتروها من صاحب أطول مسبحة.

صبيّة الشرفة تعثرت في صدري وسقطت في المستنقع.

اليد المطرقة -يد الحارس- تبعث أصوات الأقفال، تنجذّ في الأثير. تطير وتلج أذني دبقة، هلامية.

أكره أذني، ولا أغلقها. يومًا تقيأت صبري وقلت له:

- الأحرى بك أن تحرسها لا أن تلمسها!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فأجابني:

- العلاج خير من الوقاية.

أما صاحبي المصاب بالسعال فقد قال:

- الوقاية خير من العلاج.

قلت لهما، لصاحبيَّ اللذين فارقاني إلى حيث الحلقة المفرغة:

- عالجوني. قووني، لا أريد منكم أن تحبوني أو تكرهوني!

صاحبي القصير تلمَّس مفاتيحه وصمت، وضحك الذي لم أعرِّف نفسي إليه، والذي يعرفه جميع نُدل الحانات، ضحكته أغرقتني برائحة الخمر، تزعزع صحوي، وسمعته يقول:

- سأظل ملتزمًا بالشعر الشعبي.

صور شعرية انثالت على مخيلتي، وتمتمت:

- «لا بالصحاري رفّ ضوه

والسور يصطاد الهوى

لا نور مر بالحفرة»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عبس في وجهي.

- لا تمزِّق الصور الجمالية!

فأجبته:

- كلانا يحبه، لكن الفارق الذي بيننا...

ثم التزمت الصمت برهة، وأرهف هو أذنيه.

- في اليمن، اليمن السعيدة عاش خياط إنسان، وكان هذا الإنسان برأسين، وأربعة أذرع، ومن الغريب أن الرأسين كثيرًا ما يختلفان على شيء معين فيتشاجران، وتلعب الأذرع دورها دون مهارة، يتصبب العرق والدم على القماش رهن الخياطة، لم يستطع الخياط أن يوفق بين رأسيه فمات، الخياط برأسين، وأنا بحفنة رؤوس.

Telegram:@mbooks90

فقاطعني صارخًا:

- أنت مهووس، ومنحوس!

زمَّ شفتيه، وبصق، ثم استطرد:

- مَن مثلك يجب أن يخضع لعملية إبادة!

الثاني وضع المفاتيح في جيبه وهمهم:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- العلاج خير من الإبادة والبناء أو الإعادة.

في مكان ما من صدغي الأيسر ارتسمت علامة استفهام كبيرة:

- والقيادة؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكُرة والبَاص

دُوري على نفسكِ أيتها الكرة الحمراء، اعبري الشارع، دققي النظر عبر الزجاج، فلن تري سوى تفاهتك.

دُوري في حلقتك المفرغة. وسأحاول أن أغلِّف وجهي بالنفاق لأضمك منك، ما أثارني صوت أم كلثوم، ولا منعني البرد عن أن ألعنكِ، أبدًا أنا ارتديت كامل ثيابي، حتى جواربي ارتديتها من أجل أن تكبر قدمي فتنسجم والحذاء.

اليوم أريت قفاك لصديقي، كنتِ مارة. أنا لكزته، قلت له:

- تلك هي قصيدتي المقفَّاة.

ينظر صاحبي لقفاكِ ويعيد عينه إليَّ. هما تغبطانني، أسمعه يهمس:

- ١١ صفحة!

- + ١٧ سنة.

وتتعلق عيناي بالسقف، سقف المقهى. المروحة مغلَّفة بورق قذر، هناك فوق السقف يكمن -بكل إثارة- بعض من ماضيَّ.

- أظنك زرتهم؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فأجيبه، وعيني تتجه حيث أشار إصبعه إلى أعلى:

- قبل دقائق.

هو يبتسم. ابتسامته عني: «أنت محظوظ!».

تتدحرج الكرة الحمراء على الأسفلت، سدادها يُمعن النظر في واجهة زجاجية معينة وأكاد أصرخ: «لا شيء غير التفاهة!».

أنظر ثانية إلى الكيس الورقي القذر، قطعة كبيرة من ماضيَّ تسكن أعلى السقف.

«هي سمنت، أصبحت جروًا كبيرًا، عيناها، عيناها».

- ماذا قال الطبيب؟

- استعملي نظارات.

- وثلثي أين هو؟

- في مكان ما من ناحية شط العرب.

التفتُّ إلى صاحبي الذي يقول:

- الماضي مضى عليك بالجرو الجديد.

- لكني التزمت كرة مقفاة!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- سيارتك بلا عجلات.

ويطرق صوتها سمعي. هي ذهبت، وينحشر صوتها في أذني:

- أنا تجاهلت كل شيء لئلا أحرجك.

- حسنًا فعلتِ.

ومع نفسي ماذا أقول؟! لا شيء، لا شيء، غير... أنا تافه.

لا بأس أن ندرك التتانة. لا بأس أن نعفر أنفنا فيها، ولكن ماذا والتتانة تصبح تصطاد ماضينا وتمدُّه، تمدُّه بمطاطية لعابية لتحوله إلى حاضر حقير؟!

بودي لو أسحق الماضي. وانفصل عنه، ولكن ماذا والماضي -بصقة- هو الحاضر وتتجمع عباءتك على ساقيك، أنتِ أجمل بلا عباءة، وهي أجمل بعباءة، سأتنازل عن كل شيء إلا طيبتي.

النفاق شيء ضروري كي نعيش حياتنا، أما أن نتخذ منه قاعدة لكل دقيقة من دقائق علاقتنا بالآخرين...!

أنتِ تجردينني من نفاقي! أخذتِ نفاق العالم كله، وبدأت تساومينني على نفاق لا وجود له لديَّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١١ صفحة + ١٧ سنة.

وأنا لطخة قذرة + ٢٧ سنة، لا بأس أن نمارس الشعر، نحن بحاجة إلى الغش. بحاجة إلى قصيدة من ١١ صفحة موزونة وزنًا مضبوطًا على البحر الربيعي، ومقفاة بقافية أعدت للمتقين.

وأمسكُ بكلمة «جبان» من أذنها، ثم أقودها بعناية لأضعها في أعلى المكان.

«جبان!» قال وينام ملء جفنيه بعد نزوله من الباص.

أنا أعلم بأن الرياح باردة قرب منزله، بيد أنه ينام تحت لحافه الأسمر.

كلمة جبان يمكن تحريفها -بكل بساطة- إلى مكانٍ أعدَّ للمتقين، والمكان الذي أعد للمتقين يمكن تحريفه، مسْخَه، تحويله إلى كرة حمراء تتدحرج بغباء وتعود لتتلصص ببصرها إلى الواجهات الزجاجية الجوفاء، الخنفساء!

الخنفساء ما عادت في مكانها يا آنستي، هي لا تقبع خلف الواجهات الزجاجية، لعل ذكر الخنفساء يوجد اتفاقًا ما، ليدحرج كرة ما، ولكن من نوع ما.

تبتسم الكرة المقفاة وتسألني:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لِم لا تكتب قصيدة؟

- لكنني وقعت في المصيدة، لن أكتب القصيدة.

وتعود الكرة لتهرول في الصباح، الكرات تحب الشعر المقفي. ياللغرابة!

«العاهر»! ويُفلت يده من يدي.

والرصاص يا صاحبي! هل نسيته؟! قبل أسابيع ملأ الأسواق وطغى حتى أضاع قيمة الذهب.

أنا أعلم بأن المنطقة المحيطة بمنزلك خالية من الكرات. بيد أن هذا ليس معناه أن البصرة خالية من الرصاص.

- تعال نمر من خلف سيارة الباص لكيلا يرانا ماضيك!

- تعال نمر من أمام سيارة الباص، الماضي البعيد ابتعد ولا سبيل لبعثه.

هي جرو سمين! لكن الذي يزعجني ماضي لاعب الكرة، هل سبق لك ورأيت خنفساء تلعب كرة القدم؟! والمهزلة أن جوهر الكرة من الرصاص.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«الساقطة»...

اسمع يا أنت! الأخرى لم تُغرِق السوق بمعدن معين، لكنها لا تبعث الغثيان في نفسي إلَّا في الساعة التي تموت فيها من الحب، اليوم أبدلَتْ بعلها بيدي.

- أنت تؤلمني!

تمتمت هي. طرقت بابها الصغير بيدي، أنا واثق بأن بعض الأطفال خرجوا من نفس الباب، ذلك لا يمنع يدي -المضغة- أن تطلب الحماية.

- أنت تؤلمني!

- أبدًا، أبدًا، هو الذي قال عنك: ساقطة.

الدهشة تملكني، الساقطة الماثلة لا تثير الغثيان في نفسي، إذن هي قديسة.

لهذا السبب لن آخذ من معدنها النفيس إلَّا متى ما أحسَّت هي حاجة للعطاء.

- لن أغير رأيي فيها!

ويحتويه ظلامُ سيارة الباص. مصيبته. مصيبتنا أننا على حق تجاه انفسنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذبابة

لم أفق من نومي رغم أن ذبابة متوحدة لعينة كانت تصر على أن تنظف أرجلها عند مدخل أنفي.

لسبب ما كنت أدرك بأنني نائم، وبأن هذا الجو الزاخر بالغبار والأطفال لا يعدو كونه جو الحلم.

ولعلي ابتسمت، رغم إغماضتي، عندما فكرت بأن استمرار النوم يعني تتاليًا لأحداث أود إعاشتها. إذن هو خير من يقظة على واقع ينوء بحر تموز.

عندما تنظف الذبابة أرجلها عند مدخل أنفي يداخلني إحساس صغير جدًّا بأن أنفي يضمك مني.

وتلج هي الغرفة. أليست مهزلة!

وإلا فعلامَ تصر على إحضار ذاتها ضمن إطار أحلامي الخاصة؟

كانت تخطو عبر الباب. أذكر أن الغرفة لم توجد إلا بعد أن غادرت الذبابة أنفي لبرهة واستقر أنفي يراقب حركاتي باسمًا، كانت تخطو داخل كياني، وهي تحمل وجهًا ينوء بسنيه الأربعين.

- أين ذهبت؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنا؟!

- يالغبائي؟! وهل هناك سواي؟! غريب! والله غريب! أنا بطبيعة الحال هو أنا.

وهي ليست سوى استحضار مؤقت ضمن حلم مشوش لظهيرة تموزية، كانت تمثل قطاعًا كبيرًا، من ماضٍ يخصني، لا بأس، إذن هي وجدت لأن رغبة ما امتلكتها أنا أردت لها ذلك.

ما دام الأمر كذلك فكيف أتصف بمثل هذا الغباء؟!

- أين ذهبْت؟

- كنت أبحث عن وجودي.

- كان وجودك جزءًا من وجودي!

Telegram:@mbooks90

- عندما كنت كيانًا يخص الآخرين.

- والآن؟

رغبة صغيرة لأن أخلو بها تتولد في لحظة لم أكن بانتظارها، ورغبة أصغر أخرى لأن أعتذر لها، حملتها ساعات طويلة من ساعات يقظتي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكني أحس اكتفاء ذاتيًّا، ومن الإسراف أن أحمل بعضي على التقيؤ.

تجاهلت «والآن»؟ وطفقت ألتقط الأصوات من النافذة.

الهواء المشحون بغبار الأرض التي أضعت بطاقة انتمائي عليها في ساعة من ساعات يقظتي، يصيف بضجيج الأطفال، عشرات الأطفال. وأبتسم. عرفتهم كبارًا، فكيف عادوا صغارًا ضمن حلم تموزي؟!

وعندما تذكرت بأنني أدين لابنة الأربعين باعتذار كنت قد أزمعت أن أقدمه لها التفتُّ ناحيتها.

****

غريب أمر هذه الذبابة! ماذا تحمل في أرجلها لكي تصرف كل هذا الجهد في التنظيف؟ وعلامَ اختارت هوة -أنفي- بعمق جدها وجد جدها لتلقي بأقذار أرجلها فيها.

لو أن هناك ذبابة أخرى -على الأقل- ضمن جو الغرفة التي تتربع بكل تكاسل على الأرض التي أوجدت بطاقة لانتمائي عليها -وليس مجددًا- لَهان الأمر، بل لانشغلت هذه مع تلك، أو لعلهما تقطعان الوقت بالثرثرة بدلًا من تنظيف غير مجدٍ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لعلي أغضبتها بصمتي. فأنا عندما التفتُّ ناحيتها لم تصطدم عيناي بغير الضوء.

تذكرت بأن أحد أعضاء العصبة التي أولدها أبي هناك وأوجدها هنا كان قد فتح باب غرفتي التي يحترق حائطها بأشعة شمس تموزية.

الضوء هو الضوء، وإنْ لم تغدُ جفوننا فلنستدر بظهورنا.

لعل الوسادة واطئة، رأسي بثقله يندفع إلى الأمام. عندما احتضنني الطريق المليء بأطفال كانوا كبارًا.

لم أسأل أحدهم، وعلام أفعل ما دمت أنا الذي أوجدت الحلم؟ إذًا فأنا عالم بدقائق أحداثه، هم موجودون ما دمت أريد -أنا- ذلك.. حلو.

وحفلة زواج عمي الذي باعته بلدية البصرة لبلدية العشار كجاب لضرائب تخص البناء والهدم قائمة على قدمٍ وساق، أما الطريق...

وعندما دَلفت من أجل أن أعثر على عباءة معينة، قال لي أحد الأطفال: له الحق أن يحذرني ما دامت ثيابي نظيفة.

- الطريق مليئة بتراب دقيق عجيب يتصاعد بمغناطيسية مدهشة من الحذاء حتى أسفل الثوب. ويرتفع، ويرتفع، بل إنه لا يكتفي بالوقوف عند الياقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شكرته بالصمت الذي اتصف به، وتفحصتها.

غريب! عهدتها مرصوفة بأسفلت يحاكي لون جدران المدينة التي ولدت فيها كبيرًا!

كيف تفتت ذلك الأسفلت؟ كيف ذاب -بمثل سهولة وجود الأضواء التي مهما قويت فلن تصل بضوئها حتى أطراف سعف النخيل الذي يظلل ليل القرية- وتحول إلى دقيق كالح يشبه الطحين الذي وزع وقت الحرب؟

ليكن، ليكن...

ولكن أنَّى للدقيق أن يتكالب على الثياب ويصعد، يصعد -بكل حقارة- حتى يتمسك بالياقة رغم كونها غير منشَّاة!

«أين هي؟ وهل أن اعتذاري سيكون ذا قيمة بالنسبة للكراهية التي ستتولد في نفسها؟ أم أنه مجرد خط لرجعة موهومة؟».

وكان «دقيق التراب» ويتكلم ويتمطى، ثم يتثاءب ويسير...

حين تزوج عمي -قبل عشر سنوات- كانت يدها -وهي ابنة العشرين- تستريح على كتفي -تحت الياقة- بغفلة -يتآمر معها الظلام- من أعين حاضري الحفلة التي فاحت في جوها رائحة الخمر، وفي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوقت الذي فيه كانت الغجرية ترقص -بلا شبق- كانت يد هذه تتحرك بشبق تحت ياقتي.

وعندما تململت أهدابي، وأصرت الذبابة على مداعبة شعرة صغيرة تطل من كُوَّة أنفي، تساءلت عن السبب الذي من أجله زدتها عشرًا وأنقصْت عمي عشرًا، وليس عمي وحده كذلك، جميع الشبان أعدتهم أطفالًا.

وما إن هدأت أهدابي إلا وعاد «الدقيق التراب» يتكلم ويتمطى ثم يتثاءب ويسير، بينما كانت الذبابة تنشغل -باللوقاحة- بتنظيف أرجلها عند مدخل أنفي.

Telegram:@mbooks90

(1) فتحية حسين، جريدة الوطن، الجمعة ١٠ أغسطس ٢٠٠١، العدد ٩١٥٧/٣٦٠٣، السنة الأربعون.

(2) المصدر نفسه.

(3) رسالة شخصية من المؤلف بتاريخ ١٠/١٠/١٩٦٦.

(4) الرسالة نفسها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تم التحميل بواسطة:
Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner